الفصل الخامس عشر

«حسان» أرهقتني حياة وأتعبت قلبي هل هذا من أحبت لا ألوم عليك فأنتِ لم تجدي من يقف معك في تلك المحنة سواه كم أنت طيبة ومعطاءة، لم أتخيل بعد ما عرفته عنك وعن والدتك وما عانيت معها أن تكوني أنت بالذات معها بمحنتها وهذه الطيبة والحنان صدقتي حين قلت أنك تشبهين أباك.

ولكن لا أستطيع إن أمنع ذاك الضيق الذي في داخلي، إن الغيرة تنهش قلبي من هذا الرجل الذي أحبته، يا لجنوني أغار عليك حبيبتي وأنت بين الحياة والموت نعم أغار ولم لا فأنا من أحبك بصمت أحمق. «ينظر إلى يده أحرقها بسيجارته دون أن ينتبه»، أي حال أنا فيه أكملي أكملي حياة فروحي بشوق لكل تفاصيلك.

أكملي فأنا سجين حبك ولا أزال إلى الآن»

«يتابع حسان قراءة»

كانت ليلة عاصفة بكل ما فيها، صمتي قمة الصراخ، وهدوئي هو الجنون بذاته لا أعلم هل كنت نائمة أم أني أغمضت عيوني وفتحتها كأني كنت في عراك مع نفسي بين الماضي والحاضر وقصة الخادمة.

خرجت من غرفتي لأطمئن على والدتي دخلت غرفتها إنها مستغرقة في النوم يبدو عليها الراحة، تأملت المنزل لم أعتد بعد على أنه منزلي، رائحة القهوة تفوح في البيت أعدتها حليمة ووضعتها على شرفة المنزل. جلست وبدأت أشرب قهوتي وأشعلت سيجارتي وبدأت ذاك الصراع اليومي مع ذاتي المتناقضة الممزوجة دائما بين الجد والمزاح،الحقيقة والكذب. محاولتي كل صباح في الهروب من أي شيء ومن كل شيء أعلم أني فتاة خارقة في استحضاري أي حالة أريد أن أعيشها في يومي دون عناء. أفقت من شرودي وحواري مع ذاتي الذي اعتدته كل يوم على صوت رنين الهاتف أسرعت بلهفة وأخذت سماعة الهاتف أتاني صوت أحمد بتلك الرقة نعم شربت القهوة..... لا لن أتأخر سأنزل حالا أغلقت سماعة الهاتف وأسرعت لتغيير ملابسي وخرجت مسرعة بعد أن شرحت للخادمة حليمة ماذا تفعل وكيف تساعد والدتي في تمارين المشي، أغلقت باب المنزل ومشيت وتنتابني فرحة غريبة تدغدغ مشاعري

تذكرت سيري تحت المطر ويدي بيد محمود وتلك النشوة التي لا أنساها وكيف قتلها بيده قبل أن تكتمل فرحتي بها لماذا كتب عليّ حين أرتدي عباءة الفرح تلتحفني ذاكرتي لأعود للماضي، وأخاف من تكرار التجربة، ينتابني الرعب من السير إلى ذات النهاية.

حاولت الهروب من تلك الأفكار وعدت أزرع ذاك الإحساس الجميل رغم أن الغصة لازالت موجودة ودمعتي كانت تترقرق في عيني وجسدي بدأ يعرق، إنه يبكي حالي بعرقه ذاك.

وصلت إلى الشركة تابعت بعض أمور العمل المتراكمة بسبب غيابي وقبل انتهاء اليوم طلبني أحمد لمكتبه هممت إليه ولا أعلم هذا السر الذي يجعلني أرتعد حين يطلبني أهو برد.. أم حر شديد.. لا أعلم بل هو أكثر من هذا وذاك...هو سحر لا يقاوم، تنويم مغناطيسي لكل ما في الكون...شعور يجعلني فراشة تحلق لتخترق الزمان والحزن وأرتع بكل شوق فى أحضانه وكان هذا يشعرني بنشوة الفرح التي طالما افتقدت مذاقها.

دخلت المكتب كان ينتظرني وراء الباب لم يكن أقل مني لهفة وقفت أتأمله دون أي كلمة وغرقت في بحر الحب والحنان اللذين يشعان من عينيه وكأني طفلة صغيرة ترى الوجود لأول مرة من تلك العينين وشدني إليه ضمني إلى صدره.

شعرت بالدنيا من حولي تدور ولم استطع أن أثبت قدميّ على الأرض، كنت في الهواء كفراشة دار بي تلك الغرفة ويقول:كم اشتقت إليك حبيبتي.ودموعي كانت تبلل صدره لم أعرف حينها أن أحدد هل كانت دموع من شدة الحب أم هي خوف مما قد يأتي بعد هذا. أسرعت مبتعدة عنه.

- مابك ليتني أعلم أي جنون يعتريك فجأة، تكونين حمامة وديعة ودون إنذار تبتعدين بتلك الشراسة كأنك لست أنت التي كنت بين أحضاني الآن.

- أخبريني ما لذي يحدث، كنت أظنك أكثر مني شوقًا، لم أعرف النوم ليلة البارحة أريد أن أبقى في أعماقك، عمرا كاملا لا يكفيني، تعالي معي لنذهب من هنا عندي الكثير أريد البوح به.

مشيت معه دون أي كلمة حالمة مسحورة بذلك الإحساس الذي ينتابني حين أكون بقربه، ركبنا السيارة، شغل أحمد موسيقى هادئة، ساد صمت غريب لم أتكلم ولم أسأله إلى أين نذهب كل ماكان يشغل تفكيري أن أبقى بجواره وهو ينظر إليّ ويبستم ولمعة عينيه التي تجعلني أتوق دائما لعناقه فجأة أوقف السيارة سألته ماذا هناك؟

- حبيبتي أريد أن أنتقي لك بعض الملابس الجديدة.

شعرت بضيق شديد فتحت باب السيارة وترجلت منها بعصبية وهو ينادي حياة إلى أين ماذا حدث لك أيتها المجنونة

نظرت إليه بقليل من العجب والكثير من الغضب وقلت له: لا أريد ملابس.

- تعالي واركبى لنذهب إلى المنزل لن نشتري ملابس تعالي أرجوك...

عدت إلى السيارة وأنا أبتسم ابتسامة غير مفهومة وجلست بالقرب منه دون أن أنظر إلى عينيه..

- هل لي أن أسألك سؤالا؟

- أجل لك ذلك ولكن أسرع قبل أن أغير رأي..

«ضحك أحمد وشعرت به طفلًا فرحا بمزاحي وكأني أعطيته الأمان من جديد»

- ماذا دهاك لماذا غضبتي لما أردت أن أشتري لك ما أحب وأشتهي أن أراه عليك ردة فعلك الجنونية أغاظتني

- ما تحب وما تشتهي ومادخلي أنا بما تحب وتشتهي..؟

- يبدو أنك محتالة.... أم أنك تناورين.... حقا لاتعلمي أني أحبك وأهيم بك أيضا أراك مثل البحر في مده وجزره، وتهدأين كصمت الليل ليتني أفهمك !!

وصلنا إلى المنزل قبل أن يأتيه مني جواب...

هل تأتي معي أحمد.؟أجابني: ومارأيك حبيبتي.هل انتهى حديثنا مؤكد سأدخل معك المنزل.

«بدلال يتسلل إلى قلب أحمد نزلت من السيارة واتجهت إلى البيت وأحمد يتأملني بشغف، دخلنا المنزل واستقبلتنا الخادمة حليمة بصمت وحالة كآبة تبدو على وجهها لم ينتبه إلى هذا كلانا دخلت إلى أمي أطمئن عليها.

وأحمد طلب قهوته المعتادة من الخادمة حليمة وجلس ينتظرني في الشرفة.

أمي كانت نائمة، غيرت ملابسي وخرجت إلى الشرفة حيث يجلس أحمد.

- أخبريني كيف حالها اليوم..؟

- وجدتها نائمة لم أشأ أن أزعجها.. دخلت حليمة تقول:

- السيدة الكبيرة كانت متعبة اليوم ولم تتناول طعامها وطلبت مني أن أطلب لها رقما هاتفيا تكلمت مع رجل بدا عليها حزن شديد

وهي تتكلم، يبدو أنها طلبت أن تراه ولم يستجب لها ومنذ ذلك الوقت لم تتكلم ولم تأكل شيئا أنا حزينة جدا لأجلها.

- هل تعرفين الرقم الذي؟

- نعم سيدتي أعطتني ورقة عليها الرقم هو معي.

أعطتني الورقة، انتفضت غاضبة، والدموع انهمرت مني وصرخت أمي ماذا تريدين منه، ألم يكفي ما فعله بنا، لم أتمالك نفسي كنت أصرخ لم أعد أنتبه أن هناك أحدا بالشرفة، حالة من الهستريا أصابتني، أخذني أحمد وضمني لصدره بكل حنان وأنا مازلت أبكي بحرقة، وأصرخ إلى متى يا أمي؟

أجلسني بجواره على الكنبة.

أخبريني حبيبتي من هذا الرجل الذي تكرهينه لهذا الحد، وما علاقته بوالدتك أخبريني أرجوك..

«وطلب من الخادمة كوبا من الليمون»

-أخبرتك عنه سابقا وأخذت الموضوع على أنه حكاية من الخيال ألا تذكر وضحكت يومها من خيالي الخصب.يبدو أنك نسيت كل ما قلته سابقا.

- هو حدث لك حقا، ليست رواية من نسج خيالك، كيف لي أن أصدق وأنت حين قلت لك ما أخصب خيالك، لم تبدى اعتراضًا واعتبرت ذلك خيالا.

على كل حال حبيبتي لاأستطيع أن أقول أن كل ما قلت شيئا عاديا، إنه مخيف وتحملك لكل ما مر بك يعني لي الكثير، ومع ذلك حياة لاتلوميها، أحبته بكل كيانها لم تعد ترى إلا بعينيه ولاتسمع إلا نداء قلبها، الحب في مثل عمرها مركب النجاة واليوم ربما كانت تريد أن تؤكد لذاتها أنها لم تخطئ باختيارها لاتريد تصديق أنها أحبت وحشا أرادها مع بناتها وحين لم يبق سواها تركها، هذا الإحساس يا حياة قاتل لمن أحبت وضحت بكل حياتها كان لابد أن تحاول.

««كان يتكلم برقة الأب الحنون ويمسح دموعي التي لا تتوقف

- أعلم تماما حالها ربما قبل الآن كنت ناقمة عليها لدرجة الكره ولكن بعد أن دخلت إليها ورأيتها مستلقية على السرير مستسلمة لحزنها ومرضها شعرت كم هي بحاجة لحنان أكثر من حاجتي أنا.

حزينة من أجلها غاضبة نعم، ولكن ليس منها وإنما عليها حاولت أكثر من مرة أن أعيد حياتنا ونعود لبيت والدي ولكن..

بينما أنا أتكلم دخلت الخادمة وقالت:

- سيدي أحمد السيدة أناديها لا تتكلم لا ترد علي أرجوك تعال معي إلى غرفتها

« دخلت وأحمد غرفة والدتي،

اقترب أحمد من والدتي أمسك يدها، وفتح عينيها، لم أكن أعلم ما يفعل، ولكن وجوده كان يعطيني إحساسا بالأمان بوجوده أشعر أنه لامشكلة إلا ولها حل عنده، رجع إلى الوراء رفع سماعة الهاتف وطلب الطبيب، وقال لي:

- هي بنا ننتظر الطبيب بالشرفة.

- لا سأبقى معها ستصحو الآن تجدني بقربها تشعر بالأمان

- لاداعي حياة لن تصحو الآن دعينا نجلس هنا إلى حين يأتي الطبيب.

-هل والدتي بخير أخبرني أحمد أرجوك..؟

أخذني بين ذراعيه، أتمنى ذلك.

بعد نصف ساعة حضر الطبيب، دخل الغرفة مع أحمد لم يمض وقت طويل على دخولهم حتى خرجوا

وجلس الطبيب يكتب ورقة وأحمد بجانبه والدموع بعينيه

أسرعت إلى غرفة والدتي لقد وضعوا الملاءة على كامل جسدها حتى رأسها، رفعت الغطاء وناديتها أمي أرجوك تكلمي ارتميت فوقها أقبلها وأصرخ وهي لا تجيب.

بعد ذهاب الطبيب، دخل أحمد وأخرجني من الغرفة و أغلق الباب، أخذني لسريري وجلس بجانبي.

وأنا أصرخ هل ماتت أمي، لماذا جسدها بارد، ماذا حدث أخبروني، هل قتلها ذلك الرجل كما قتل أبي، يجب أن أقتله لن أدعه يعيش بعد كل ما فعل. سأل أحمد أليس عندك أي دواء يهدئ من حالتك تلك، أذكر قلت لي أنك تأخذين أحيانا أقراصا مهدئة مهدئ أليس كذلك أرجوك لأجلي أين الدواء..؟

- سأحضر لك الحقيبة.

«أجابته الخادمة»

«أنا شاهدتها تأخذه من حقيبتها»

أعطاني قرصا من الدواء المهدئ. وبقي بجانبي هو وحليمة أتذكر آخر شيء كان يقوله أعطني رقم بيت والدك يجب أن نخبر الأهل يبدو أني أعطيته الرقم، وغفوت بين أحضان الماضي والحاضر

في صباح اليوم الثاني، أتى أحمد إلى غرفتي يمسح على شعري،

- صباح الخير حبيبتي، أريدك قوية كما عرفتك اشربي قهوتك وتعالي لنتدبر أمر الجنازة أنا قمت بكل شيء ولكن لم أشأ أن أخبر أهلك بحالة الوفاة ليلًا.

عندما تنتهي من شرب القهوة تعالي واتصلي بهم ليكونوا معك فى هذه المحنة.

لم أجبه.. أصابتني حالة الخرس

حياة حبيبتي أرجوك ساعديني، لم أنم طوال الليل يجب أن أطمئن عليك أنا بالشرفة أنتظرك أشربي قهوتك وغيري ملابسك أحضرت لك ما يناسب لمثل هذه الظروف، انتظرك بالشرفة.

بقيت كما أنا، حتى أتت الخادمة حليمة أمسكت بيدي وأخذتني لأجلس على الكرسي وساعدتني في ارتداء ملابسي.

-حياة أعرف أن مصابك كبير ولكن يجب أن تكوني قوية، لو بقيت على حالتك تلك ستخسرين الكثير،

نظرت إليها وماذا هناك بعد يمكن أن أخسره.

- هناك أحمد، إنه يستحق أن تكوني قويه لأجله، لو بقيت هكذا سيشعر أن وجوده لم يغير شيئا.

يتعاطف معك قليلا ولكن ما أسرع أن يمل الحزن ويمضي دون رجوع، هو حال الرجال سرعان ما يصيبهم الملل.

«كلماتها تلك كانت صفعة قوية أفاقتني مما أنا فيه، حقا هل ممكن أن يتخلى عني..؟»

- حياة حبيبتي هو يتحمل لحد ما، ولكن ما من رجل يستسيغ الحزن رغم حبه لك ولكن إذا شعر أنك ضعيفة مؤكد سوف يرحل، هيا بنا حبيبتي نخرج إليه ونساعده في أمور الدفن وإخبار أهلك، ليس من اللائق أن يخبرهم هو وليس له صفة رسمية

-حسنا حليمة هي بنا نخرج إليه.

«كان يجلس بالشرفة ومعلامات الحزن والقلق تبدو عليه، حين رآني تقدم نحوي وأمسك بيدي أجلسني بجواره».

- الحمد لله على سلامتك، كنت فى غاية القلق عليك حبيبتي، تعالي وأخبريني ماذا يجب علينا فعله ليس هناك متسع من الوقت من أجل الجنازة.

-سأخبر أختي وهي تخبر العائلة.

«نادى حليمة»

- أحضري الهاتف إلى هنا.

«أحضرت الهاتف حليمة»

اتصلت بأختي لمى

«بخير حبيبتى، ...وأنا اشتقت لك كثيرا...

- أبكي أجل، أبكي والدتنا توفيت الليلة البارحة

يجب أن تخبري الأهل ليحضروا الجنازة.

- كما تريدين بعد ساعة سأكون عندك.

- ماذا هناك...ولماذا أنت تذهبين، هي من يجب عليها الحضور لترى والدتها وتكون معك فى مثل هذا الظرف.

-تقول يجب أن أنقل والدتي الى منزل والدي وتخرج من هناك حتى يحضر الأهل جنازتها لا تريد إخبار أحد بسكني هنا وخاصة ليس هناك ما يربطني بك رسميا.

«شرد أحمد للحظات، أظن أن ما قالته أختك هو الأفضل ولكن علينا أن نتحرك بسرعة

طلب أحمد سيارة إسعاف من المستشفى ونقلنا والدتي إلى منزل والدي.

وضعناها على سريرها، ذهب أحمد وبقيت حليمة معي.

لم نتكلم أنا وأختى فى أى شي فالبيت كان مكتظًا بالناس، ومضى علينا أسبوع كامل على ذلك الحال نستقبل المعزين في النهار، حتى يأتي الليل وقد أصابنا التعب وغلبنا النعاس، ننام دون أي حديث، وانتهى الأسبوع.